اللغة العربية وتعريب التعليم الطبي
مرشد خاطر نموذجاً

أ. أحمد بوبس(*)

لغتنا العربية الجميلة لغة حية متجددة، هي لغة الحب والشعر، لغة إذا لامستِ الأسماع نزلت بردًا وسلامًا على الأكباد، كما قال شاعرنا العربي الكبير حليم دمّوس:

لو لم تكن أم اللغات هي المنى ... لكسرت أقلامي وعفت مدادي
لغة إذا وقعت على أسماعنا ... كانت لنا بردًا على الأكباد
ستظل رابطةً تؤلف بيننا ... فهي الرجاء لناطق بالضاد
أفما رأيت الشمس، وهي بعيدة ... تهدي الشعاع لأنجدٍ ووهادِ

ولغتنا العربية هي الحصن الحصين لأمتنا وعروبتنا. ودائمًا ترتقي اللغةُ بارتقاء أمّتها، وتنحدر بانحدارها. وإذا استهترت أمة بلغتها فإنها لاشك يصيبها الضياع أو تدانيه، كما يقول شاعر القطرين خليل مطران:

إذا ما القوم باللغة استخفّوا ... فضاعت ما مصير القوم قل لي
وما دعوى اتحاد في بلاد؟ ... وما دعوى ذِمار مستقلِّ؟

(*) كاتب وإعلامي.

ألقى الأستاذ أحمد بوبس هذه المحاضرة في قاعة المجمع بتاريخ ٢٧/ ١/ ٢٠٢١م.

وبعضٌ مما تعانيه أمتنا اليوم ناجم عن إهمالها للغتها واستهتارها بها.

ولغتنا العربية هي لغة العلم والحياة، استطاعت عبر تاريخها الطويل استيعاب الحضارات الإنسانية. فقد نقل العلماء العرب قديمًا معارف وعلوم الحضارة الإغريقية، والبيزنطية والرومانية إلى العربية فاستوعبتها. وفي عصر الازدهار العربي، في الدولتين الأموية والعباسية، وضع العلماء العرب باللغة العربية النظريات والأبحاث، وألّفوا الكتب في علوم الرياضيات والطب والفيزياء والكيمياء والفلك، وترجمت هذه الكتب إلى اللغات الأوربية. وعلى سبيل المثال بقي كتاب (القانون في الطب) لابن سينا يُدرَّس في الجامعات الأوربية لأربعمئة من السنين.

بل إن العلماء العرب ابتكروا علومًا جديدة، مثل علم الجبر الذي وضعه أبو موسى الخوارزمي. وترجمت هذه الأبحاث إلى اللغات الأوربية، ودخلت المصطلحات العلمية العربية اللغات الأوربية بلفظها العربي، مثل (الجبر Algebra)، (الخوارزمية The algorithem)، (العود The oud)، (اللوغاريتم Logarithem)، (المئذنة Minaret)[(١)]...

وإنّ لغتنا العربية استطاعت أن تستوعب الكثير من الكلمات الأعجمية من اللغات اليونانية والفارسية وغيرها. وفي القرآن الكريم الكثير منها، ومنها كلمات (بستان، وزير، سقر، جهنم)[(٢)]. وهذا يعني أن لغة الضاد قادرة

(١) ذِكرُ المحاضر للعود (The oud) والمِئذنة (Minaret) في سياق الكلام على دخول المصطلحات العلمية العربية اللغاتِ الأوربية بلفظها العربي = غير مناسب؛ لأنّ هاتين الكلمتين ليستا من المصطلحات العلمية بالمعنى المتعارَف المقصود. = [المجلّة].

(٢) تمثيل المحاضر هنا بكلمتي «بستان» و«وزير» في ضوء سياق الكلام ليس بصحيح؛ لأن الأولى: «بستان» – وهي معرّبة من الفارسية – لم ترد في القرآن الكريم، والثانية: «وزير» عربية دون شكٍّ، وما من أحد ثقة نعلمه قدَّر أنها معرّبة من أصل أعجمي = [المجلّة].

على التفاعل مع لغات الشعوب الأخرى أخذًا وعطاء.

ثم يأتي بعد ذلك من يقول: إن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب المعطيات العلمية والتقنية الحديثة، وجاء الرد الحاسم على هذا القول على يد الدكتور مرشد خاطر الذي كان له الفضل الأول في تعريب مناهج تدريس الطب في المعهد الطبي العربي بدمشق منذ عام ١٩١٩، الذي تحول فيما بعد إلى كلية الطب في جامعة دمشق، لتغدو كلية الطب، وكليات الطب في سورية، الوحيدة التي تدرس علم الطب الحديث بلغة الضاد.

من هو مرشد خاطر؟

لا بدّ لنا في البداية من التعرف على مرشد خاطر، على نشأته ودراسته الطبية، وكيف وصل إلى ما وصل إليه.

وُلد مرشد خاطر في الأول من كانون الثاني عام ١٨٨٨ لأسرة صغيرة ومتواضعة في قرية بتاتر، وهي قرية من قضاء الشوف في لبنان. وتلقّى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدرسة الحكمة ببيروت. وكانت هذه المدرسة تُعنى باللغة العربية عناية فائقة، ممّا كان له الأثر الكبير في تمكنه منها، كما كانت تعنى عناية كبيرة باللغة الفرنسية، التي أتقنها مرشد خاطر أيضًا. وبعد نيله الشهادة الثانوية (البكالوريا) عام ١٩٠٦، انتسب إلى كلية الطب الفرنسية في الجامعة اليسوعية ببيروت، ونال شهادتها عام ١٩١١، بعد أن خاض امتحانًا أمام لجنة طبية فرنسية، ومنحته شهادة طبية من الجمهورية الفرنسية بتاريخ ٧ كانون الثاني عام ١٩١١. وكانت شهادة هذه الكلية تصدر في باريس، كأي كلية في إحدى جامعات باريس.

ومع انطلاق شرارة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، استُدعي مرشد خاطر للخدمة العسكرية في الجيش العثماني، ومُنِحَ رتبة رئيس. وشارك مع

الجيش العثماني في عدة معارك طبيبًا في المشافي الميدانية، وفي بعضها تعرف على الدكتور رضا سعيد الذي كان أيضًا ضابطًا في الجيش العثماني. وفي عام ١٩١٨ أُرسِل مرشد خاطر مع القوات التركية إلى منطقة معان في جنوب شرقي الأردن لمقاتلة قوات الثورة العربية بقيادة الشريف حسين، وفي منطقة محطة غدير الحاج جنوب مدينة معان، حيث كانت تتمركز القوات التركية المنضوي تحت لوائها، وقع أسيرًا في يد القوات العربية في المعركة التي وقعت بين القوات العربية والقوات التركية بتاريخ الثاني والعشرين من أيلول عام ١٩١٨، ولكن سرعان ما أُطلق سراحه مع سائر الأطباء العرب بأمر من الشريف حسين. واتجه مرشد خاطر إلى حيث يقيم الأمير فيصل بن الحسين على رأس الجيش العربي، الذي كان يستعد للذهاب إلى دمشق وإقامة دولة فيها، وطلب الدكتور مرشد مقابلة الأمير فيصل. وبالفعل طلب منه الأمير فيصل أن يرافقه إلى دمشق. وعلى الفور عُيِّنَ رئيسًا للقسم الجراحي في مشفى (أبو الأسل)، وهو مشفى ميداني تابع لقوات الثورة العربية، ورُفِّع إلى رتبة مقدم. ودخل مرشد خاطر دمشق طبيبًا في الجيش العربي.

وعندما دخلت القوات العربية دمشق بقيادة الأمير فيصل بن الشريف حسين في الثالث من شهر تشرين الأول عام ١٩١٨، كان مرشد خاطر من ضمن هذه القوات. وقد عُيِّنَ رئيسًا للقسم الجراحي في المشفى العسكري بدمشق (يعرف هذا المشفى حاليًّا بمشفى المزة العسكري)، وعمل في (مشفى الغرباء) الذي يقع شرق مبنى رئاسة جامعة دمشق، وقد تحول اسمه إلى (المشفى الوطني)، وحاليًّا أصبح المشفى متخصصًا بالأمراض الجلدية، ويُعرَف بـ(مشفى الأمراض الجلدية).

بداية الحكاية:

بدأت الحكاية - أيها السادة - بتاريخ الثامن من تشرين الثاني عام ١٩١٨،

حين استقبل الأمير فيصل الدكتور رضا سعيد، وطلب منه إنشاء معهد طبي في دمشق. ووضع رضا سعيد شرطًا أن يكون التدريس في المعهد باللغة العربية. وعندما وضع هذا الشرط، كان تفكيره يتجه صوب الدكتور مرشد خاطر الذي سيكون الحامل الأساس لعملية تعريب مناهج تدريس الطب في المعهد. واعتمد رضا سعيد في اختياره لمرشد خاطر على مِيْزَتَينِ مُهمَّتين تتوفران لديه، وهما إتقانه للغة العربية، وإتقانه المماثل للغة الفرنسية التي ستكون المصدر الأساس للتعريب. ولم يكن مرشد خاطر الوحيد في عملية التعريب، بل كان معه فريق عمل، منهم الدكتور شوكة الشطي والدكتور أحمد حمدي الخياط والدكتور منير شورى والدكتور أحمد منيف العائدي وغيرهم، لكن مرشد خاطر كان على رأس المجموعة، تنفذ أفكاره وتوجهاته في هذا المجال.

جوانب عملية تعريب التعليم الطبي:

شملت عملية تعريب تدريس الطب في المعهد الطبي العربي ثلاثة جوانب، هي كما يلي:

أولًا- إلقاء المحاضرات باللغة العربية:

جهودًا خلاقة ومضنية بذل الدكتور مرشد خاطر، وهو يتصدى لعملية تدريس الطب في المعهد باللغة العربية. كان معظم أساتذة المعهد يعانون ضعفًا في اللغة العربية التي كان مبلغها عند بعضهم درجة الركاكة، فهم خريجو المعاهد الطبية التركية أو كليات الطب الفرنسية والأوربية. وكان الأستاذ منهم يقوم بكتابة محاضرته بلغته العربية الضعيفة، ويدفع بها إلى الدكتور مرشد خاطر، الذي يقوم بتنقيحها وإصلاحها لغويًّا وأحيانًا إعادة كتابتها، ثم يعيدها إلى الأستاذ الذي يعكف على حفظها عن ظهر قلب في الليلة التي تسبق موعد إلقاء المحاضرة.

ثانيًا- المؤلفات الطبية:

اعتمد مرشد خاطر في كتبه الطبية على نوعين من التعريب: الأول الترجمة، والثاني التأليف باللغة العربية.

أ- الترجمة:

في هذا الجانب ترجم مرشد خاطر عددًا من الكتب والمعاجم الطبية، بمساعدة عدد من أساتذة المعهد الطبي كما سيرد. وهذه الكتب هي:

١- السريريات والمداواة الطبية: تأليف الدكتور ترابو الأستاذ في المعهد الطبي العربي، وترجمة مرشد خاطر وشوكت الشطي. ويتناول الحالات والقصص الطبية السريرية، ومظاهر وعلامات وأعراض المرض بصورته النموذجية، وشرحها للطلاب بالطريقة المثلى.

٢- معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات: تأليف الدكتور كليرفيل الأستاذ في المعهد الطبي العربي، نقله إلى العربية الدكتور مرشد خاطر والدكتور أحمد حمدي الخياط والدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي. ضم المعجم المصطلحات الطبية في أهم أربع لغات أوربية، هي الفرنسية والإنكليزية والألمانية واللاتينية، وأضاف إليها مرشد خاطر العربية.

سعى مرشد خاطر في هذا المعجم - وغيره من الكتب المترجمة - إلى تحرّي المعنى الصحيح لكل مصطلح أجنبي من مصطلحات المعجم، وإيجاد المقابل العربي له الموافق لمعنى المصطلح الأجنبي. وعمد في ذلك إلى قواعد اللغة العربية، فلجأ أحيانًا إلى اشتقاق كلمة موافقة للمصطلح الأجنبي، وفق قواعد الاشتقاق في اللغة العربية. فاعتمد اسم الآلة الموافق لمعنى المصطلح الأجنبي مثل (المِنْبَذة) على وزن مِفعلة و(المِمَصّ) و(المبضع) على وزن مِفْعَل. وفي أحايين أخرى استخدم

كلمات على أوزان معروفة، وعلى سبيل المثال أخذ وزن الفعل السداسي (استفعل)، واعتمد منه مصدره (استفعال)، وأطلق أسماء بعض الإجراءات الطبية على وزنه، مثل (استشفاء)،(استلقاح)،(استمصال). ولم يلجأ إلى أسلوب تعريب المصطلح، أي: إنه لم يعمد إلى اشتقاق المصطلح العربي من لفظة المصطلح الأجنبي. ولكي أوضح هذه النقطة أضرب مثالًا على تعريب الاسم أو المصطلح، أي: اشتقاق اللفظ العربي من اللفظ الأجنبي، فكلمة (تلفزيون أو تلفاز) مشتقة من التسمية الإنكليزية (television). أما المصطلحات الكيمياوية فتركها على حالها، وبلغاتها الأجنبية.

٣- مختصر أمراض النساء: تأليف لوسركل الأستاذ في المعهد الطبي العربي، وترجمة مرشد خاطر. ويتناول الكتاب الأمراض الخاصة بالنساء وسبل معالجتها.

٤- أمراض جهاز البول: تأليف لوسركل، وترجمة مرشد خاطر.

٥- جراحة أنبوب الهضم: ترجمه مرشد خاطر عن اللغة الفرنسية.

٦- الدروس العملية في الأمراض النسائية: ترجمه عن اللغة الفرنسية.

٧- الداء وسر العملية في الأمراض الولادية: ترجمه عن اللغة الفرنسية.

ب – التأليف:

في كتبه المؤلّفة اتبع مرشد خاطر نفس طريقته في الترجمة فيما يتعلق بالمصطلحات. أما صياغته العربية فكانت على درجة عالية من الدقة في المعنى والمبنى: كانت صياغة واضحة وسهلة حتى للقارئ غير المختص. ومؤلفاته هي:

١- فن التمريض:

تناول الكتاب مختلف جوانب العملية التمريضية للمريض، من لحظة

دخوله المشفى وحتى خروجه منها. أولًا في الجانب الخدمي مثل تغذية المريض والعناية بنظافته، وثانيًا في الجانب الطبي كإعطائه الأدوية والحقن بأنواعها وتضميد الجروح والتخدير، وأخذ عينات عمليات تحليل البول والدم وغيرها. وتضمن الكتاب في نهايته فهرسًا للمصطلحات الطبية الواردة في الكتاب، مرتبة حسب الأبجدية.

٢- إصلاح النسل:

يقصد المؤلِّف من عبارة (إصلاح النسل) الوصول إلى أبناء سليمين أصحاء من الناحية الجسدية والنفسية والعقلية، وحتى في الملامح. أما دافعه لوضع هذا الكتاب فيلخصه ما جاء في المقدمة:

«هذا ما حدا بي إلى طرح هذا الموضوع، بعد أن رأيت بعين الحزن ناشئتنا تتدهور في هوة التأخر، بعد أن رأيت الأمراض والعاهات تقوض بناء الجسد، وتدكّ صروح العقل، وتشلّ قوى النفس؛ مؤمِّلًا أن يكون للخاطبين والمتزوجين منه الفائدة التي أتوخاها. فإذا كنا نريد الحياة الحرة، فلن نبلغها إلا بإصلاح نسلنا».

يتناول الكتاب العوامل التي تؤثر في تكوين جسم الإنسان، سواء من الناحية الجسدية (القوة والضعف)، أو من الناحية العقلية (الذكاء)، وأيضًا من الناحية النفسية والأخلاقية، وحتى في الشكل الخارجي (الملامح حسنها وقبحها)؛ ليصل في النهاية إلى أفضل السبل لتحسين هذه الجوانب في الإنسان. يضم الكتاب خمسة عشر فصلًا.

٣- موجز الأمراض الجراحية (جزءان):

يتناول الأمراض التي تحتاج إلى عمليات جراحية، ويشرح المشاكل التي قد تنجم عن الجراحة مثل: الصديد والقيح والعفن، وكيفية تجمُّعها أو التعامل معها إن حدثت.

٤- الأمراض الجراحية (خمسة أجزاء):

١- الجزء الأول: الأمراض الجراحية العامة.

٢- الجزء الثاني: جراحة الرأس والعمود الفقري والصدر.

٣- الجزء الثالث: كسور الأطراف وخلوعها وآفاتها.

٤- الجزء الرابع: جراحة الرأس والعمود الفقري والصدر والثديين.

٥- الجزء الخامس: أمراض الصدر الجراحية.

٥- معجم العلوم الطبية:

ساعده فيه الدكتور حمدي الخياط وابنه محمد هيثم الخياط. ويحتوي على مصطلحات العلوم الطبية الحديثة، من تشريح وغرائز ونسج وجنين وكيمياء حيوية وجراثيم وطفيليات، وتشريح مرضي وطب باطني، وتخدير وتوليد، وأمراض نسائية وجلدية وأذنية وعينية، وطب الأطفال والصحة العامة والطب الوقائي والطب الشرعي، وأدوية ومداواة وأشعة وتاريخ الطب، وكل ماله صلة بالطب من نباتات وحيوان وكيمياء وفيزياء وغير ذلك. واعتمد مرشد خاطر فيه على الأسلوب اللغوي نفسه الذي اتبعه في (معجم العلوم الطبية الكثير اللغات)؛ إذ عمل على استقراء الوظيفة أو المعنى للمصطلح الطبي الفرنسي، ووضع وفق قواعد اللغة العربية واشتقاقاتها المصطلح العربي المقابل.

ثالثًا- مجلة المعهد الطبي:

مجلة المعهد الطبي التي أسسها وترأس تحريرها مرشد خاطر مدة صدورها من عام ١٩٢٤ حتى توقفها عام ١٩٤٧، كانت وسيلة مهمة لتشجيع البحث الطبي باللغة العربية. فقد أتاحت لأساتذة المعهد الطبي وغيرهم الكتابة والبحث؛ وشجعتهم على وضع الدراسات والأبحاث الطبية باللغة العربية. وكان مرشد خاطر الوحيد في المجلة، يقوم بتنقيح هذه

الدراسات وتلك البحوث لغويًا، قبل أن يدفع بها إلى المطبعة. وشجعت المجلة أولئك الأطباء على خوض غمار تعريب المصطلحات الطبية، فكانت تنشر نتاجهم في هذا الجانب.

خطوة ناجحة:

تعريب التعليم الطبي في المعهد الطبي العربي بدمشق استطاع خلال سنوات قليلة أن يفرض نفسه، وأن ينال الاعتراف على الصعيد العربي والأجنبي.

بدأت حكاية هذا الاعتراف حين شارك وفد من المعهد الطبي بدمشق برئاسة الدكتور رضا سعيد وعضوية الدكتور أحمد حمدي الخياط والدكتور ترابو في المؤتمر الدولي لأمراض البلاد الحارة الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٢٨. ففي إحدى قاعات المؤتمر عُرِضَتِ المؤلَّفات الطبية الصادرة عن المعهد الطبي بدمشق لإثبات صلاحية اللغة العربية للكتابة الطبية؛ وحظيت المؤلفات بإعجاب الأطباء المصريين الذين اطلعوا عليها. وأشادت جريدة المقطّم المصرية في إحدى افتتاحياتها بما أنجزه المعهد الطبي بدمشق، فقالت:

«لقد جاءنا المعهد الطبي في دمشق ببرهان جديد على إمكان تعليم الطب بالعربية، وأقام لنا الحجة على صحة هذه النظرية بمجموعة من الكتب النفيسة التي ألَّفها أساتذة هذا المعهد، فأسدَوا إلى اللغة العربية خدمة جليلة...فعسى أن يكون ما صنعه المعهد الطبي في دمشق مثالًا يُحتذى...».

وبعد سنوات تفرغ الدكتور رضا سعيد لرئاسة الجامعة، وتولى عمادة المعهد الطبي الدكتور أحمد منيف العائدي الذي اقترح دعوة الجمعية الطبية المصرية لعقد مؤتمرها الدوري المقبل في دمشق، ليطلع أعضاؤها على تجربة تدريس الطب بالعربية عن كثب. وبالفعل انعقد المؤتمر في دمشق خلال الفترة (١٧ - ٢٢) حزيران ١٩٣٥؛ فكان الأطباء المصريون

يحضرون دروس المعهد، ويجلسون بين الطلبة في مقاعدهم يستمعون إلى المحاضرات التي يلقيها الأطباء السوريون إلى الطلبة، وقام الأطباء المصريون بسبر معلومات الطلاب لمعرفة مدى استفادتهم من المحاضرات؛ فترسخت قناعتهم بنجاح التعليم الطبي باللغة العربية. ولم يمض أسبوع واحد على انتهاء المؤتمر، وعودة الوفد المصري إلى القاهرة، حتى تلقى الدكتور رضا سعيد برقية من الدكتور علي باشا إبراهيم (رئيس الجمعية الطبية المصرية)، يعلمه فيها أن مصر قررت الاعتراف بشهادة المعهد الطبي العربي بدمشق. ولحقتها بقية الدول العربية، وأصبحت هذه الدول تفضل التعاقد مع الأطباء المتخرجين في معهد دمشق الطبي. وشُجِّع الكثير من الطلاب من البلدان العربية على الانتساب إلى المعهد.

وكان هاجس رضا سعيد الكبير أن تُقبل شهادة المعهد الطبي بدمشق في الجامعات العالمية؛ لذلك استقدم ثلاثة من الأطباء الفرنسيين للتدريس في المعهد هم (ترابو، لوسركل، كليرفيل). وهدفه من ذلك جعل مناهج المعهد الطبي تقترب من مناهج كليات الطب الفرنسية. وكان في كل سنة يدعو لجنة من الأطباء الفرنسيين إلى دمشق كي تقوم بإجراء فحوص التخرج (الكلوكيوم)، فكان طلاب المعهد يخضعون أمام اللجنة لامتحاناتٍ نظرية وعملية لكل ما تعلموه خلال السنوات الخمس في المعهد. وبذلك حقق أمنيته، فأصبحت شهادة المعهد الطبي بدمشق معترفًا بها في كليات الطب الفرنسية أولًا، ثم في كليات الطب الأوربية. ونال تعليم الطب باللغة العربية مشروعيته العالمية، وأثبت أن اللغة العربية هي لغة حية متجددة، وقادرة على استيعاب مستجدات العلوم الحديثة. وكل ذلك بفضل جهود مرشد خاطر وتفانيه.

* * *